«سيرة آخر بني هلال» لصالح السنوسي:

العربي المهاجر و «الاخر» في سرد جريء متداخل

محمد الأصفر*

■ لم أكن أعرف الروائي الليبي د صالح السنوسي شخصيا .. بيد أنني أجد بعض رواياته على أرفف مكتبة البستان بسيدي حسين .. (عندما يفيض الوادي) .. (غدا تزورنا الخيول) .. (لقاء على الجسر القديم) 1990 م .. اتصفحها ولا اشتريها .. وذات مرّة نظمت رابطة الأدباء في بنغازي ندوة احتفائية بأعماله في دار الكتب الوطنية وأيضا لم أحضرها وحدثني بعض النقاد الشباب طارق الشرع واحمد التهامي عنها وكيف ان هذا الروائي يهمه رأي الشباب في كتاباته وانه انسان رائع وطيب وبسيط ومن هذا المدخل أحببت أن أتعرف على هذا الروائي. والتقينا مرّة في مكاتب مؤسسة الصحافة ببنغازي تبادلنا بعض الكلمات والتحايا وأعطيته مسودة إحدى قصصي التي تدور أجواؤها في فندق تيبستي خمس نجوم وأذكر أننا التقينا بعدها أكثر من مرة في شوارع رباية الذايح وفي كل مرة نلتقي نجلس في اول مقهى قريب نحتسي الشاي ونتحدث في اي موضوع. وحتى تلك اللحظة لم أقرأ له أي عمل لكن قرأت دراسات ومقالات حول اعماله فهمت منها ان الكاتب درس في فرنسا ونقل تلك الاجواء الفرنسية الينا وان اهتماماته سياسية ويشغله كثيرا الهم القومي وروايته حول حرب اكتوبر كتب عنها وأشاد بها الناقد الكبير المرحوم غالي شكري ..

ذات عشية كان في جيبي نقود وارتدت مكتبة قريبة من القنصلية الايطالية في بنغازي تبيع بعض الكتب والجرائد المجلوبة من مصر ووجدت من ضمن المعروضات رواية لصالح السنوسي بعنوان «حلق الريح» واشتريتها وفي غرفتي ببيوت شباب شحات قرأتها في ليلة واحدة .. «حلق الريح» رواية جميلة ممتعة عرضت الهم العربي بكل تداعياته وربطته بالهم الانساني .. اشتغل فيها الروائي على أجواء الواقعية السحرية خاصة رواية ماركيز «مائة عام من العزلة» من حيث خلق مكان غير معروف اسميا لكن واقعيا تحسه امامك وبجانبك وداخلك وايضا توالد الاجيال وانتقال الاحداث زمنيا من جيل الى جيل بسلاسة واختزال .. والذي اعجبني في رواية «حلق الريح» الأجواء البدوية الليبية التي وظفها في الرواية وأيضا اجادته بناء شخصية الفقيه في الرواية بأن جعل للفقيه مشاعر وأحاسيس ورؤية عميقة للحياة اكتسبها من خلال عيشه وسط النجوع ومعايشة مشاكل الانسان اليومية وهذا البناء المغاير لم يحدث في الروايات والقصص الليبية السابقة حيث نجد الفقيه في كتابات صادق النيهوم واحمد يوسف عقيلة وغيرهما شخصية سالبة مستهجنة جاهلة لا دور لها سوى تكريس الظلامية والتحايل على العباد .. وأعتقد أن هذه الرواية لو تحولت إلى شريط خيالة أو مسلسل درامي فستجلب الكثير من الإعجاب والاحترام.

وأعرت هذه الرواية لأكثر من صديق من خارج الوسط الثقافي وكل من قرأها من هؤلاء أثنى عليها .. أي أن هذه الرواية نالت إعجاب القارىء العادي وهذا نجاح كبير يتمناه كل كاتب .. لم تبق لدي الرواية ولا أدري الآن أين هي .. والأكيد أنها تنتقل من قارىء إلى آخر هاربة بجلدها الغض من ارفف المكتبات وأدراج المكاتب .. نسيت هذه الرواية ومصيرها وفي صباح خريفي التقيت الدكتور صالح في مقهى انترنيت ودعاني إلى وليمة عرسه، وبعد تناول الأرز واللحم والمصيّر ومشروب البيتر الصودا دعوت له بالهناء والسعادة وقلت له: اريد روايتك الجديدة «سيرة آخر بني هلال» .. وقال لي: يا أصفر اليوم عرسي والبيت مزدحم بالنساء ومانيش فاضي خليها فرصة أخرى اعطيك نسخة من الرواية. لكنني عنّزتْ (أي أصررت) وقلت له ستذهب في شهر العسل ولن أجدك .. أريد الرواية الآن .. وقال لي: شهر العسل هنا في بنغازي وسأحضرها لك في المقهى أو في المنتدى الإذاعي .. وكان مزاجي أن أقرأ الرواية تلك الليلة فقلت له: ان لم تحضر الرواية الآن فسوف أزعل منك زعلة شرمولية .. غاب دقائق وعاد بنسخة رائحتها بخور العرس مدها لي فقلت له اكتب لي اهداء. وكان يرتدي اللباس الليبي التقليدي سورية وفرملة قبل إن يصيح في وجهي لأغادر وأتركه وشأنه.

***

ذات شتاء عندما كنت ابيع الملابس لدكاكين البدو في طبرق والبيضاء والمرج وأمر عليهم لتحصيل المبيعات او مدهم بالبضاعة الجديدة وكان البرد قارصا والمطر ينهمر بغزارة والريح عاصفة وكنت قد انطلقت من بنغازي فجرا حتى طبرق وعدت في نفس اليوم، ويبدو انني قد اخذت بردا وأصبت بالحمى فتوقفت حين العودة في مدينة المرج واستضافني صديق تاجر .. قدّم لي الشاي الساخن وحضّرت لنا الحاجة امه قصعة مقطع بالزبدة الوطنية واللبن وكنت محموما وجائعا وبردانا فتحاملت على شهيتي وأكلت كثيرا من هذا المقطع الساخن الدسم واسترخيت على نطع صوف و ظننت انني ساقوم بعد ساعة لأواصل طريقي الى بنغازي لكن الحمى اشتدت وزادت حالتي سوءا ومرضت كثيرا وبت ليلتي في مربوعة الصديق .. ومرت الأيام والشهور ولم ازر مدينة المرج ثانية .. وفي يوم من الأيام التقيت بهذا الصديق في بنغازي وقال لي الحاجة أمي مشغولة عليك سألتني عنك وقالت وين صاحبك محمد من يوم المقطّع قطّع .. وأنت يا زوجتي العزيزة لو آكل هذا المقطّع الحار فسأقطع جري (هنا كلمة أقطع تعطي معنى أركض بأقصى سرعة) صوب درنة أو طرابلس أو مراكش واجري بعدها في وراء الأصفر ان وجدتيه .. وصرخت فيها شيلي المقطع من قدامي وإلا كببته على رأسك .. أعططططططع أنا البطل .. أنا رجل البيت .. المقود في يدي .. ديريلي الشاي وحطيله بردقوش درناوي .. اللعنة على العالم .. اتركوني وحدي .. وبدأت أقرأ الرواية غير عابئ بما يحدث أمامي أو جواري .. رواية سيرة آخر بني هلال تشتمل على حكاية بسيطة لرجل عربي اسمه عدنان (لاحظوا دلالة الاسم) يهرب من وطنه لأسباب سياسية إلى بلد عربي آخر (هارب من الغولة طايح في سلال القلوب) يمنحه ذاك البلد حق اللجوء السياسي .. لكنه لا يوفر له الامان ويعتقله ويعذبه ويوجه له تهما باطلة دون ادلة .. وكلما تحدث اي مشكلة في البلد يتم التحفظ عليه والتحقيق معه بوحشية .. وفي النهاية تستقيم علاقة هذا البلد مع وطن عدنان فيطلب منه المغادرة إلى أي مكان أو تسليمه إلى وطنه .. فيختار بالطبع المغادرة إلى أي مكان وتتكفل مخابرات البلد تهريبه بواسطة باخرة تجارية إلى فرنسا .. وفي فرنسا يتصل بمنظمة حقوق الإنسان فتسجله لاجئا سياسيا .. في باريس يعمل في شركة دعاية وملصقات وفي أوقات فراغه يرتاد مقهى .. يجلس فيها يوميا يكتب الشعر واليوميات ويراقب الحياة اليومية داخل المقهى وفي الشوارع المحيطة مبرزا عبر تداعياته كافة التناقضات والطرف والحكايات الجانبية الحادثة قربه وايضا يعود دائما بذاكرته مستحضرا ما عانى من عذاب السجن في بلده وايضا في البلد العربي الذي استضافه مدة قبل ان يعقد صفقة تفاهم مع وطنه ..

كل مساء يعود الى غرفته التي يشاركه فيها فأر صغير فيتحدث للفأر ويناجيه وذات يوم وضعت السلطات الصحية مبيدا للقوارض في كافة أرجاء العمارة فاختفى الفأر أو أنه طلب لجوءاً إلى مكان آخر .. وصار عدنان يتحدث مع جدار الغرفة .. بعد سنوات من المعاناة أنجز ديوان شعر سماه «الفضيحة» يحكي فيه قصته ويدين فيه دولة وطنه والدولة العربية الأخرى التي التجأ اليها فعاملته بربية وعذبته وسجنته عدة مرات .. ديوان الفضيحة يحكي عن حياته ايضا في فرنسا .. طبع هذا الديوان بواسطة دار نشر عربية في فرنسا ووزعته على المكتبات والاكشاك فاختفى من الارفف بسرعة .. ظن ان له قراء كثيرين اشتروا هذا الديوان لكن الحقيقة التي اكتشفها ان مخابرات البلاد العربية هي التي اشترت كل النسخ المعروضة لتمارس دورها الرقابي حتى خارج بلدانها وازداد عناده فقام بطبع الديوان طبعة ثانية وزعها على المكتبات والاكشاك بنفسه .. لكن النتيجة التي تحصل عليها من هذا العناد هي رصاصتان غادرتان من قاتل مأجور مر به على دراجة نارية فأرداه قتيلا.

هذا هو ملخص مختصر لأحداث رواية سيرة آخر بني هلال ..

لكن الأحداث في العمل الإبداعي ليس كل شيء فهناك شخصيات وزمن ومكان وكيمياء معقدة تتمركز داخل النص وتمنحه الحياة وسبب الوجود .. في سيرة آخر بني هلال عدّة مزايا أهمها التكثيف في اللغة والصور فكل سطر مكتوب أدى وظيفته التصويرية أو الايحائية على أكمل وجه .. العنوان أيضا سيرة آخر بني هلال عنوان معبر ويحمل دلالات كبيرة خاصة عندما نقرنه باسم عدنان وهو اسم لجد العرب .. ومعروف جدا ان شمال افريقيا والمغرب العربي ساهمت في تعميره وسكنه وتفعيل الحياة فيه قبائل بني هلال ذات الحكاية الشعبية والاسطورية المعروفة والتي جاءت للمنطقة منذ الف عام تقريبا لتنصهر مع البربر وبقايا الرومان والقرطاجيين والفراعنة وسكان الصحراء والواحات في صهير واحد مكونة التجمعات الحضرية والبدوية الحديثة .. اي أن عدنان ليس غريبا انما هو مواطن عربي يعيش بيننا جاء من ارض عربية واستوطن ارض عربية اخرى أي هاجر داخل الوطن ولم يجتز البحر كعدنان العصر الراهن.

هذه الرواية السياسية نستطيع ان نقول انها من الروايات العربية القليلة التي تناولت هموم الانسان السياسية بصورة مباشرة .. فشخصية عدنان المضطر للهجرة للشمال تختلف كليا عن شخصية بطل الطيب صالح في موسم الهجرة للشمال وتختلف ايضا عن شخصية بطل عبد الرحمن منيف في شرق المتوسط .. فهذا العدنان المستجير من الرمضاء بالنار يرمى به في ثلج اوروبا الذي لم يمنحه الدفء الانساني الذي تصوره وكافأه برصاصتين غادرتين أعادتاه إلى وطنه جثة خرجت تتألم وهي حيّة وعادت تتألم وهي ميتة .. فبطل صالح السنوسي يوضح لنا أن العالم الآن متواطىء مع بعض .. ولا يوجد أي مكان آمن يمكن للإنسان أن يلتجئ إليه ويعيش بكرامة .. فأدوات القمع والمخابرات تستطيع الوصول إلى أي مكان .. والغرب المتشدق بالديمقراطية وحقوق الإنسان ما هو الا محض زيف وهذه الحقوق الانسانية وضعت من اجل الغرب فقط وليس كل الغرب بل النخبة الغنية منه اما بقية العالم فهم مخلوقات تباع وتشترى وتستبدل .. وبالطبع التهم جاهزة : في الوطن خيانة وخارج الوطن ارهاب.

الرواية رغم ان لغتها ليست شعرية .. اي كما تذوقتها هي لغة اكاديمية جديّة قوية رصينة واضحة المفردات والمعنى مثل لغة البحوث والرسائل العلمية الا ان الشعر يكمن في الصور الجميلة التي بنى بها الدكتور صالح الشخصيات فمعظم الاحداث تقع في المقهى وقليل منها في الشارع العام او الغرفة مع بعض الاسترجاعات داخل غرف التحقيق والزنزانات في الوطن او الدولة العربية التي منحت عدنان حق اللجوء السياسي عندما كانت متشاجرة مع وطنه ..

شخصية عدنان هي المحور وهي التي تحرك لنا عبر سرد الوقائع ووصف المكان بقية الشخصيات وتمنحها حضورها حسب الحاجة اليها وحسب علاقة عدنان بها .. شخصية عدنان شخصية شاعر فنراه يتفاعل جدا مع شخصية المتسولة العجوز فرانسواز حتى انه يحفظ اغنيتها التي تغنيها عازفة لحنها على الة الكرديون ويضمنها سرده اكثر من مرة .. هذه الاغنية هي معبرة عن حالته وغربته تتحدث عن الحرمان والرجاء والأمل الأغنية تقول:

انتظرته عمرا ولم يأت بعد
ولو لا شوق انتظاره
لكان قاسيا ما فات من الزمن حتى اليوم
انتظره وليس بيننا موعد
ولكنه قد يأتي بعد رحيلي
فيكون حقا قد جاء في موعده
فقط انا التي انتظرته قبل الأوان!

أيضا يتفاعل جدا مع شخصية الهامشي جان كلود الذي لقبته امه وسيم باريس وهذا الكهل امضى عمره في السفر والمتعة واحتساء النبيذ المعتق وشخصيته بها من زوربا نيكوس كانتزاكي غير ان جان كلود مثقف ومتعلم واقل جنونا .. يتعرف على عدنان وعن طريق محاورته يسرد لنا الراوي كثيرا من عادات و تاريخ باريس وفرنسا وجان كلود ايضا حكيم وشاعر عندما ينتشي من النبيذ يدندن بكلمات نستطيع ان نصنفها انها قصيدة نثر نستمع اليه:

تاهت قدماي بين سفر وسفر
اغراني شعاع الشرق فاختلست بواكيره
وصنعت منها قلادة لجيد لم تشرق على مثيله شمس
أغواني شعاع الأصيل
فأدركته قبل أن يصير ارجوانيا
واقتطف منه باقة بنفسجية
ربطتها بقوس قزح
يداي مثقلتان
وقدماي تاهتا بين سفر وسفر
ولكنني بين الشعاعين لم التق شيئا اخر غير هذا العالم
فما اروعه لو لم يكن سيئا ..

وجان كلود الذي ابدعه صالح السنوسي هو عجوز فرنسي يمثل الانسان الأممي المنفتح على الجميع يحتسي النبيذ ويعبر عن افكاره بكل حرية ويخالط الغرباء ويصاحبهم .. هو لا يملك بيتا ولا ثروة .. عمره قضاه في السفر ومخالطة الناس من كافة الاعراق والتعرف عليهم والتفاعل معهم. شخصيته تمثل العالم المتسامح الذي يجب ان يسود.

بقية الشخصيات المطروحة في الرواية شخصيات ثانوية مساعدة تصور الصراع على المال والجنس وعلى كسب القوت اليومي بأي وسيلة .. تصور العنصرية خاصة ان رأى بعضهم عربيا مع فتاة فرنسية .. أغلب الأحداث تدور داخل المقهى .. ولم يفت الراوي ان يبرز لنا المعركة التى قامت بين كلب صاحب المقهى وقط زوجته بسبب كنبة نوم عرجاء بثلاث ارجل .. في الرواية ثلاثة حيوانات فأر يهرب من المبيدات وقط يتشاجر مع كلب كل ليلة .. داخل المقهى ومع السجائر والقهوة والعالم الصاخب تغزوالتجليات الاسترجاعية ذاكرة عدنان فتذكره بما قاساه في الوطن العربي فيسرد لنا حادثة معاناة أو انتهاك وحشي لجسده أثناء وصلة تعذيب .. يعيش الكابوس وهو مستيقظ ولا يغادره هذا الكابوس الا بفضل ضحكة احدى الجميلات أو دخول المتسولة المطربة فرانسواز او الحكيم جان كلود .. خارج المقهى بالنسبة لعدنان جحيم لا يطاق فطريقه الى غرفته في العمارة تمر عبر شوارع مظلمة خطرة وفي طريق عودته دائما يلتقي بشخص أحول يحملق فيه كلما مرّ بجانبه وهو دون شرح يعبر عن رجل المخابرات المرسول من وطنه لمتابعته وتصفيته ان سنحت الفرصة .. في العمارة لا يعرف احد ولا يرحب به احد من السكان أي العمارة مثل هذا العالم حتى الفأر الذي يحكي معه ويؤانسه وضعوا له المبيد فجاف او هاجر ويصير يحكي للجدار اي ممنوع الحكي مع اي كائن حي. فقط الخادمة البرتغالية عند مدخل العمارة يتبادل معها بعض كلمات المجاملة ويداعب طفلتها التي يرى في عينيها بعض البراءة. في الميادين العامة يجلس عدنان قليلا ليصور لنا حياة المهاجرين العرب فيتحدث لنا السرد بلهجة شامية ولهجة جزائرية او مغربية ومصرية ويشاهد كيف يتحرش العرب ببعضهم بسبب العاهرات او يحدثون مشاجرة وهمية لينشلوا المحافظ من فضاضة النزاعات .. يرى الجميلات ويعيش حرمانه على الطبيعة .. عدنان هو شخصية العربي المغلوب على امره الذي لم يجد فردوسه .. عبر عن رأيه في بلاده فسجن. خرج لاجئا نفس الشيء سجن .. عبر الى اوروبا وجد المساومات وشراء الذمم .. انضمّ في اوروبا الى منظمة خيرية انسانية فوجد ان لها اهدافا مشبوهة ولا تتظاهر الا وفق خطة سياسية لنصرة طرف على طرف .. اشتغل في جريدة فطلب منه التمجيد والتطبيل للدولة الراعية .. كتب الشعر كما يريد هو ونشره فتمت تصفيته .. هذه الشخصية العدنانية رغم استدعائها من ارث عربي قديم عبر هجرات بني سليم وبني هلال قبل الف سنة الا انك تشعر انها تعيش الان وفي المستقبل ايضا فالعالم منذ القدم لم ينعم بلحظة حرية حقيقية .. فالحرية التي تقدمها لك الدولة حرية تخدم سياستها واستمراريتها في السلطة .. حرية تحولك الى رقم تضعك حيثما تريد .. وتبرمجك وفق مشيئتها .. وان كان قد قدم لنا صالح السنوسي سيرة اخر بني هلال .. فواجب علينا ان نسأله عن سيرة بقية الرهط من الهلاليين .. هل نستطيع القول ان سيرهم ضاعت ؟! .. وان انسانيتهم لا قيمة لها .. هل نستطيع ان نقول انهم ماتوا بصورة او بأخرى ؟! .. هذه الرواية السياسية تطرح علينا الكثير من الاسئلة وتتركنا نتخبط بين الاجابات التي نراها متاحة امامنا بينما هي عصية بعيدة المنال .. الحقيقة ـ وهذا تقصير مني ـ لم اقرأ كثيرا من الروايات الليبية. قرأت بعض روايات ابراهيم الكوني والجزء الاول من ثلاثية احمد ابراهيم الفقيه ومن مكة الى هنا لصادق النيهوم وقليل من ليالي نجمة للاستاذ خليفة حسين مصطفى ورواية سريب لأحمد الفيتوري ورواية دردانين لعاشور الطويبي والتابوت لعبد الله الغزال .. واستطيع القول ان كل الروايات المذكورة لم تطرح الأسئلة التي طرحتها رواية «سيرة آخر بني هلال» ولم تتناول الهموم السياسية التي تناولتها رواية «سيرة آخر بني هلال» والذي اعتقده جدا ان الكاتب الحقيقي هو من يعبر عن زمنه الذي عاش فيه حتى وان تم استدعاء فترات زمنية قديمة او استخدم اساطير او جلب المستقبل اليه وسيسجل التاريخ هذا الامر للروائي صالح السنوسي .. والملاحظ جدا لو تتبعنا سيل الروايات العربية التي تناولت علاقة الشرق بالغرب او الجنوب بالشمال مثل رواية الطيب صالح «موسم الهجرة الى الشمال» ورواية توفيق الحكيم «عصفور الشرق» و«الحي اللاتيني» لسهيل ادريس وثلاثية احمد ابراهيم الفقيه وروايات اخرى لكتاب جزائريين ومغاربة وتوانسة ومصريين وسوريين لا تحضرني عناوينها الان .. الا ان اغلب الروايات المذكورة سابقا تطرقت لهموم الذات والعاطفة والانبهار بالغرب ولم تلامس بشكل أصيل هموم المواطن العربي الحقيقية وهي السياسة .. وللأسف الشديد قد قامت معظم الدول العربية بتمجيد هذه الروايات ومنحها جبالا من الثناء والجوائز والاحتفاء تثمينا لها لأنها لم تمس السياسة وتغنت بأشياء غير مؤثرة اطلاقا على شاكلة: ترف أدبي .. نظريات أدبية .. نقلة نوعية في عالم الرواية .. إلى آخر هذه القائمة من العناوين ورؤوس الاقلام الطنانة.

والواضح جدا لدي ان رواية صالح السنوسي سيرة اخر بني هلال (وكلمة آخر مهمة جدا ولها عمق غير عادي) رواية مهمة صادمة جريئة قدمت خطابا واضحا بأسلوب حكائي سلس نابع من تبحر الروائي في دراسة الادب العربي والعالمي حديثه وقديمه ونابع ايضا من معاناة شخصية في السجن ومن تجربة ثرية عاشها اثناء دراسته في فرنسا، اضافة لتخصصه وتدريسه الجامعي لمادة العلوم السياسية والاقتصاد .. من خلال هذه الرواية استطاع ان يجعل شخصية عدنان وطنا وليس فردا .. وسفره الى فرنسا منفيا هاربا هو هجرة اضطرارية تنشد الامان .. في فرنسا عانى الكبت والحرمان ومتابعة الشرطة والفقر والوحدة والبرد والتفرقة العنصرية والاضطهاد ومخافة الابعاد او عقد الصفقات التي تمس كرامته .. هجرة اضطرارية جلبت له مزيدا من البؤس والشقاء واخيرا السقوط صريعا على اسفلت مثلج.

هذه الرواية الصادرة عن دار الهلال رغم قصرها (135 صفحة) الا انها تقدم لنا بانوراما كاملة عن الانسان العربي المهاجر مبرزة حالته النفسية في المهجر ومعاناته من الكبت الجنسي رغم الاباحية المفرطة .. تقدم لنا نماذج من صورة الاخر عبر شخصيات كثيرة ترتاد المقهى وتتفاعل فيما بينها خائضة في النميمة والخيانة والصراع على الشهرة والمال والجنس .. طيلة سطور الرواية نحس بهاجس الخوف من البوح الصادق فنجد الراوي يدين الحكام بسطور قصيرة ماكرة ثم يقفز بعيدا كما في لعبة القط والفأر .. نجده يستحدث اسماء رمزية وهمية لأمكنة عربية معروفة .. في هذه الرواية يناقش الراوي باسلوب تخييلي قضايا الاستبداد والدكتاتورية والقهر التي يعيشها العالم وللوهلة الاولى يظن القارىء ان الراوي يمارس اسقاطاته المجنونة قاصدا بها الانظمة العربية فقط، لكن النص الفني للرواية يدين ايضا الدكتاتوريات الديمقراطية الغربية التي لا تتوانى ابدا في سبيل مصالحها خاصة المادية عن بيع اي انسان ومقايضته ببرميل نفط حتى وان كان هذا الانسان من بني جلدتهم ومواطنا من دولتهم، وحوادث التاريخ اثبتت ذلك اكثر من مرة .. فالدكتاتوريات العربية جحيم يفهمه المواطن العربي ويتعايش معه لكن للدكتاتوريات الغربية في امريكا واوروبا جحيما لم يفهمه بعد وإن فهمته بعض الاعمال الابداعية النادرة والتي بالطبع من ضمنها رواية «سيرة آخر بني هلال»..

* كاتب ليبي

صالح السنوسي (القدس العربي)

كاتب فرنسي يهاجم حرب الغرب على الارهاب

القاهرة ـ من سعد القرش:

حث كاتب فرنسي على عدم السير وراء من وصفهم بالمهرجين الذين قال انهم يخلطون الشعارات بالتحليلات فيما يتعلق بالحرب على ما يعتبرونه ارهابا أو حربا عالمية رابعة ليست الا اعادة توجيه جغرافي لعدو خارجي. وقال باسكال بونيفاس رئيس معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية بباريس في كتاب «الحرب العالمية الرابعة» ان أحدا لا يمكن أن «يتجاهل خطر الارهاب الذي يمكن أن يفضي الى حريق هائل...انهم يشعلونه في الوقت ذاته. هم لا يكتفون باظهار الهوة وانما يحفرونها ويقودوننا اليها بسرعة كبيرة. فلنتبعهم وستتحقق الكارثة».

وأشار الى وصف الرئيس الامريكي جورج بوش لهذه الحرب بأنها طويلة نظرا لاتساع ميدان المعركة ليشمل أرجاء المعمورة مضيفا أن الذين يقولون انهم يحاربون الارهاب يساعدون على تعزيزه لان «فكرهم عائم وخلفياتهم متضخمة لذا يطرحون بشدة تصوراتهم الايديولوجية بغرض أن تمنع الضجة التي يحدثونها التفكير».

والكتاب الذي صدر العام الماضي بالفرنسية بعنوان «هل نسير في طريق الحرب العالمية الرابعة..» ترجمه الى العربية المصري المقيم بباريس أحمد الشيخ وصدر في الاونة الاخيرة بالقاهرة. وقال بونيفاس ان العلاقة بين العالم الغربي والعالم الاسلامي «تمثل التحدي الاستراتيجي الاعظم الذي ينبغي علينا أن نواجهه» مشيرا الى أن حرب العالم الغربي ضد الارهاب ستكون الحرب العالمية الرابعة بعد الحرب الاولى «1914 – 1918» والثانية «1939 – 1945» والحرب الباردة «1947 ـ 1991». وتقع الترجمة العربية للكتاب الذي أصدرته مكتبة الشروق الدولية والمركز العربي للدراسات الغربية بالقاهرة في 200 صفحة كبيرة القطع ويضم فصولا منها «من الحرب الباردة الى صدام الحضارات» و«الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني مصدر محتمل لصدام الحضارات» و«من تأسيس اسرائيل في الامم المتحدة الى عزلة اسرائيل بالامم المتحدة» و«الولايات المتحدة ـ اسرائيل.. تحالف فريد» اضافة الى ملحق يضم قائمة بالمرات التي استخدمت فيها الولايات المتحدة حق النقض «الفيتو» في مجلس الامن فيما يتعلق بالصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني راصدا استخدام الولايات المتحدة حق الفيتو 39 مرة منذ عام 1967 لتمنع ادانة مجلس الامن لاسرائيل. ومن الاستخدامات الامريكية الاخيرة لحق الفيتو فيما يتصل بممارسات اسرائيلية أوردها الكاتب أن الولايات المتحدة اعترضت يوم 14 أكتوبر تشرين الاول عام 2003 على «ادانة بناء الجدار على خط يبتعد عن خط 1949 وهو «الجدار» غير شرعي في نظر اجراءات القانون الدولي ويجب وقف عملية البناء» كما اعترضت يوم 25 مارس اذار 2004 على «ادانة اسرائيل لاغتيالها الزعيم الروحي الشيخ أحمد ياسين» مؤسس حركة المقاومة الاسلامية «حماس». ولفت المؤلف الانتباه الى أن مصطلح الحرب العالمية الثالثة لم يظهر طوال سنوات الحرب الباردة لكنه ظهر بعد سنوات من نهايتها وتفكك الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي في التسعينيات. وعلق قائلا ان اختيار المصطلحات «عملية ليست بريئة. واذا أراد المرء أن يتجنب هذه الكوارث ينبغي أن يتولى بصورة حازمة تسوية الصراع الاسرائيلي الفلسطيني. هذا الصراع الذي كان منذ زمن طويل واحدا من بين صراعات أخرى صار اليوم وعاء لصدام حضارات محتمل».

وقال ان المحافظين الجدد في الولايات المتحدة استخدموا مصطلح الحرب على الارهاب وألحوا على نشره «وفقا لاجندة خاصة بهم ونحن مضطرون للتعامل مع مصطلحهم حتى لو كنا ننتقده...هذا التعبير ضار لانه يخلق الخطر الذي يزعم أنه يحاربه وهو تعبير خطر لانه يعني ضمن ما يعني أن المستقبل مقدر سلفا».

وأضاف أن الارهاب في مأزق لانه لن يحقق ما يدافع عنه كما أن مقاومة الارهاب في مأزق أيضا لان الحلول العسكرية والامنية وهي تحارب الارهاب تعمل على تدعيمه «بوش يقول انه يريد محاربة ابن لادن «زعيم القاعدة» لكنه في الحقيقة يدعمه وابن لادن يريد اضعاف بوش لكنه يعززه سياسيا».

وأشار الى قول جيورجي أراباتوف أحد مستشاري الرئيس السوفيتي الاسبق ميخائيل جورباتشوف لامريكيين في محادثات عام 1987 «سنقدم لكم أسوأ خدمة.. سنحرمك من العدو» المتمثل انذاك في الاتحاد السوفيتي الذي كانت الولايات المتحدة تعتبره تهديدا لها. وقال المؤلف ان الخطر الذي كانت الدول الغربية تتحد في مواجهته لم يكن ليظل شاغرا لفترة طويلة وكان على أمريكا حتى تبقي على قيادتها للعالم أن تعثر على خصم بديل وبدأ الحديث أولا عن «خطر الجنوب» ثم أطلق عليه «العالم الاسلامي» قبل أن يتم «تصحيح التسمية والاتجاه نحو تجريم الحركات الاسلامية الراديكالية ثم أخيرا الارهاب الاسلامي. ومن الان فصاعدا وباسم الكفاح ضد الارهاب الاسلامي ينبغي تأسيس صفوف متراصة تحت القيادة الامريكية».

وأضاف أنه لم يكن «بالتأكيد» ينبغي انتظار سقوط جدار برلين عام 1989 ولا حرب الخليج عام 1991 ولا وقوع هجمات 11 أيلول (سبتمبر) 2001 على الولايات المتحدة «لاكتشاف الخطر الاسلامي».

وأشار الى أن الامر بدا كما لو كان «مجرد اعادة توجيه جغرافي للخطر يسمح بالابقاء على اطار التحليل ومرجع استراتيجي تقريبا متطابق مع الخطر السابق».

وأضاف أن حرب الخليج عام 1991 لتحرير الكويت أعطت تجسيدا عمليا لنظرية خطر الجنوب حيث أصبح الرئيس العراقي السابق صدام حسين الذي قال انه دعم عسكريا من قبل القوى الغربية بما فيها أمريكا في حربه مع ايران يقدم بعد غزوه الكويت عام 1990 بوصفه هتلر الجديد. وقال ان خطر الجنوب يشكل ملمحا للعبة قديمة كامتداد لحروب استعمارية مشيرا الى أن «أقوى رابع جيش في العالم كما قدم بدون حق لكن بدون شك لغرض ما وهو الجيش العراقي في 1990 لم يصمد سوى عدة أيام منذ قرر الغربيون وحلفاؤهم المسلمون وهو ما يتناساه البعض في الغالب أن يطردوا هذا الجيش من الكويت». (رويترز)

محمد الماغوط: الشاعر ومتسكع الأرصفة الحزين [2-2]

صور متواصلة للضياع الانساني والهزيمة

محمد برغوت *

■ إلا أن الشاعر محمد الماغوط واع بأن عملية تعويضه هاته التي يستعين عليها بتقمص الخيال وتوهم السفر والتلذذ بالمرأة والخمرة، لن تسعفه كثيرا لمواجهة ما يحبل به الواقع، ولذلك فإن وعيه بشروط حياته سرعان ما يطغى على ما سواه، ومن ثم يصرخ بأعلى صوته:

«لقد سئمت يا بيروت
يا سرطانا من الحرير
لا المرأة ولا الحرية
لا الشرف ولا المال
يزيل هذا اليأس من قلبي
دعيني أحتضر فوق الجبال
دعيني أرفرف كالنسر بين الأقدام
وأنتم يا «أعدائي» وأحبابي
يا من تقرأونني فوق السروج والصهوات
يا من تقتاتون على حزني كالكلاب الضارية
سأقذف هذا القلم إلى الريح
سأدفنه كالطائر
بين الثلوج البيضاء
وأمضي على فرس من الحبر
ولن أعود.».(22)

إن هذا الاحتجاج المذعور نوع من الارتداد الرومانسي، لأنه تعبير عن اغتراب حقيقي عن المجتمع.

هكذا اتخذ الحزن أوجها في المتن الشعري للماغوط، لكنه لا يخدعنا عن ينابيعه السلبية عندما يتخذ هذه الصور السوداء المتمحورة حول الرفض المطلق، والاحتجاج الشامل، والهروب المستمر والانطوائية التامة.

وسأكتفي فيما يلي بجرد نماذج لهذا الحزن ـ كما عبر عنه الشاعر ـ في دواوينه الثلاثة:

«حياتي سواد وعبودية وانتظار».(23)
حياتي حبر ومغلفات وليل بلا نجوم
شبابي بارد كالوحل
عتيق كالطفولة
طفولتي يا ليلى.. ألا تذكرينها؟
كنت مهرجا .. وبين المنازل المتسلخة كأيدي الفقراء
ككل طفولتي
ضائعا.. ضائعا
اشتهي منضدة وسفينة.. لأستريح
لأبعثر قلبي طعاما على الورق».(24)
«سامحيني.. أنا فقير وظمآن
أنا إنسان تبغ وشوارع وأسمال».(25)
«مخذول أنا لا أهل ولا حبيبة
أتسكع كالضباب المتلاشي
كمدينة تحترق في الليل
والجنين يلسع منكبيّ الهزيلين».(26)
«أنا الشريد ذو الأصابع المحرقة
والعيون الأكثر بلادة من المستنقع
لا تلمني إذا رأيتني صامتا وحزينا
فإنني أهواك أيها الصنم الصغير».(27)
«إنني رجل من الصفيح
أغنية ثقيلة حادة كالمياه الدفقة
كالصهيل المتمرد على الهضبة».(28)
«أريد أن أهز جسدي كالسلك
في إحدى المقابر النائية
أن اسقط في بئر عميقة
من الوحوش والأمهات والأساور».(29)
«وأنا أجلس كالجراد عند العتبة
أعد الغيوم وحلقات الدخان».(30)
«سأقف على موجة عالية
كما يقف القائد على شرفته
وأصرخ:
إنني وحيد يا إلهي».(31)
«قهوة قهوة أيتها الجدران
مزيدا من الارصفة والغبار أيها الله
شفتاي في قاع الزجاجة
أريد أن أكون سمكة في مستنقع بعيد
سمكة في غيمة عالية تتحرك».(32)
«يخيل إلي أنني أتهاوى على الارصفة
سأموت عند المنعطف ذات ليلة
وأصابعي تتلوى على الحجارة كديدان التفاح
دون أن ينظر إلي أحد».(33)
«وأنا في خريف العمر
والشيخوخة البيضاء بدأت تمس جبيني
كالياسمين الدمشقي عند كل منعطف
من يوليني اهتمامه؟».(34)
«فحزني لا حسب له ولا نسب
كالأرصفة
كجنين ولد في مبغى».(35)
«أيها البناؤون ادعموني بحجر
إنني أتصدع
كالجدران التي خالطها الغش».(36)
«حسنا أيها العصر
لقد هزمتني
ولكنني لا أجد في كل هذا الشرق
مكانا مرتفعا
أنصب عليه راية استسلامي».(37)

تعكس هذه النماذج الشعرية المستقاة من متن الماغوط الشعري مدى اتساع حجم هذه الصور السوداء المتمحورة حول الضياع الإنساني والغربة الشاملة لإنسان العصر المهزوم.

إن هذه الحساسية المريضة عند الماغوط ـ وعند جيله ـ ما هي إلا صورة لفشل الانسجام بينه وبين شروط حياته، وللانفصال بين مثله وواقعه، فغدا من الصعب أن يتعايش في وطن تسكن نفسه إليه، وكأن الوطن ـ كما قال عبد الغفار مكاوي: «صار غريبا، والغربة صارت وطنا»(38)

لقد فجرت حضارة العصر بأحداثها الكبيرة ـ يقول أحمد بسام ساعي ـ وملامحها المتشابكة المعقدة، نفوس شعرائنا، فدفعت بهم في اتجاهات عديدة متباينة، كان أكثرها سلبا، يعكس الاغتراب عن الذات حينا، وعن الواقع حينا آخر، ويتخذ لنفسه مظاهر شتى».(39) ويبقى الماغوط في الاخير ـ كما ذهب إلى ذلك ـ وفيق خنسة ـ «نموذجا صادقا وصريحا لمثقفي الريف الفقراء الذين هبط